



الثلاثاء 21 يونيو 2022 12:39 م

إن تمام التذكر يكون مع الهدوء والسكون .

فمن ثم كانت مدرسة الليل .

وكان ترغيب الله للمؤمنين أن يجددوا سمت الذين {كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون} وإذا انتصف الليل ، في القرون الأولى ، كانت أصوات المؤذنين ترتفع تنادي :

يارجال الليل جدوا

رب صوت لا يرد

ما يقوم الليل إلا

من له عزم وجدُّ

وإنها حقاً لمدرسة ، فيها وحدها يستطيع رجالها أن يذكوا شعلة حماستهم ، وينشروا النور في الأرجاء التي لفتها ظلمات الجاهلية .

وإنها تجربة إقبال يوجزها فيقول :

نائج والليل ساج سادل

يهجع الناس ودمعي هاطل

تصطلي روحي بحزن وألم

ورد (يا قوم) أنسي في الظلم

أنا كالشمع دموعي غسلي

في ظلام الليل أدكي شعلي

محفل الناس بنوري يشرق

أنشر النور و نفسي أحرق 29

وإن دعوة الإسلام اليوم لا تعني حتى يذكي دعائها شعلهم بليل ، ولا تشرق أنوارها فتبدد ظلمات جاهلية القرن العشرين مالم تلهج بـ(يا قيوم) .

ما نقول هذا أول مرة ، وإنما هي وصية الإمام البنا حين خاطب الدعاء فقال :

" دقائق الليل غالية ، فلا ترخصوها بالغفلة " 30

أفعبينا أن نعيد السمات الأول ، أم غرنا اجتهاد في التساهل و التسيب و الكسل جديد ؟

إن القول لدى الله لا يبدل ، ولكننا أرخصنا الدقائق الغالية بالغفلة ، فنقل المعرم ولم يجعل الله لنا من أمرنا يسراً .

إن انتصار الدعوة لا يكمن في كثرة الرق المنشور ، بل برجة نصوح إلى العرف الأول ، ومنى ما صفت القلوب

بتوبة ، و وعت هذا الكلام أذن واعية : كانت تحلة الورطة الحاضرة التي سببتها الغفلة المتواصلة .

ذلك شرط لا بد منه .

و كأن النصر حجب عنا لأننا نادينا من وراء الحجرات ، وجهرنا رافعين أصواتنا نوجب على الله لنا هذا النصر بادلال ، نبيعه و نثبت لنا حقاً عاجلاً في الثمن من دون أن نقدم بين يدي بيعنا همساً في الأسحار ، ولا الدمع المدرار ، وإنما النصر هبة محضه ، يقر الله بها عين من يشاء من رجال مدرسة الليل في الحياة الدنيا ، ولا يلت الآخريين المحصرين من ثمنهم في الآخرة شيئاً ، ويوقع أجرهم عليه .

إن تعلم الإخلاص ، وفضح الأمل الكاذب الدنيوي أجلى أعطيات مدرسة الليل ، كما يقول وليد ، وذلك ما توجب تربيتنا تركيزه وتعميقه في النفوس . قال ، والحق ما قال :

ياليل قيامك مدرسة

فيها القرآن يدرسنى

معنى الإخلاص فألزمه

نهجاً بالجنة يجلسنى

و يبصرنى كيف الدنيا

بالأمل الكاذب تغمسنى

مثل الحرياء تلونها

بالإثم تحاول تطمسنى

فأباعدتها وأعاندها

و أراقبها تتهجنى

فأشد القلب بخالقه

والذكر الدائم يحرسنى 31

وأكثر من هذا فإن من يتخرج في مدرسة الليل يؤثر في الأجيال التي بعده إلى ما شاء الله ، والمتخلف عنها يابس قاس تقسو قلوب الناظرين إليه، والدليل عند بشر بن الحارث الحافي منذ القديم ، شاهده وأرشدك إليه، فقال :

" بحسبك أن قوماً موتى تحيا القلوب بذكرهم ، وأن قوماً أحياء تقسو القلوب برؤيتهم " .

فلم كان ذلك أن لم يكن ليل الأولين يقظة ، وليل غيرهم نوماً ؟ ونهار الأولين جداً ، ونهار الآخريين شهوة ؟

أنسيفك الحمامة ؟

وإنه لقلب رقيق قلب الفقيه الزاهد أبي سهل الصعلوكي ، يظهره تأنيبه لنفسه في قوله :

أنام على سهو و تبكي الحمام

وليس لها جرم ومني الجرائم

كذبت لعمرو الله لو كنت عاقلاً

لما سبقتني بالبكاء الحمام 32

فإن الذنب لا يغسل إلا بدمع ، و الشجاعة تسقى بدموع الليل ، وما عرف تاريخ الإسلام رجاله إلا كذلك ، ولم يقل ابن القيم باطلاً في وصفه لهم بأنهم :

يحيون ليلهم بطاعة ربهم

بتلاوة ، وتصرع و سؤال

وعيونهم تجري بفيض دموعهم

مثل انهمال الوايل الهطال

في الليل رهبان ، وعند جهادهم

لعدوهم من أشجع الأبطال

بوجوههم أثر السجود لربهم

وبها أشعة نوره المتلالي 33

و سأل عبد الوهاب عزام الليل عن أروع أسراره ، فأبان جوابه عن إصابة المؤمنين والمذنبين في تحريم إياه و استمع لتجاوزهما :

قلت لليل : كم بصدرك سر

أنبئني ما أروع الأسرار ؟

قال : ما ضاء في ظلامي سر

كدموع المنيب في الأسحار 34

أفتري المؤمنين إلا مصدق بجواب الليل ، فهو مسارح مستبق ؟
أم ترى أهل البلاغة إلا في إذاعة لما قال ؟ يستملون الناس :
فاز من سبح والناس هجوع
يدفن الرغبة ما بين الضلوع
و يغشيه سكون و خشوع
ذاكراً لله والدمع هموع
سوف يغدو ذلك الدمع شموع
لتضيء الدرب يوم المحشر سجدة لله عند السحر 35
و يلقنون المذنبين المخطئين طريق الجنة ، فيستملون المسرف في أخرى أن :
عد إلى الله بقلب خاشع
وادعه ليلاً بطرف دامع
يتولاك بعفو واسع
و يبذل كل تلك الحسنات حسنات أجرها لن ينقدا
كل هذا العفو للعبد المنيب
سابقاً من خالق الكون الرحيب
للذي تاب إليه من قريب
من كتاب "الرفائق" للأستاذ محمد أحمد الراشد